المشرق

رحلتي الى الشوا

او من هرر الى اديس ابابا عن طريق التشرشر

للصيدلي القانوني عبدالله افندي الياس رعد

تمهيد

من قاعدة الامارة الهررية الى عاصمة الحبشة مسافة تختلف حسب الطرق التي يسلكها المسافر في رحلته وهذه الطرق هي ثلاث :

الاولى (طريق صحراء الدناكل) وهي الاقصر والاسهل لكن حرّها لا يطاق ولا ماء فيها الّا ما استنقع في بعض ثقوب الارض من ماء المطر وكثيرًا ما تنضب هذه الصهاريج الطبيعية فيموت المسافر وبهائمهُ عطشًا اللهمّ الّا ان يحمل معهُ مؤونة لايام كثيرة في الحلات التي لا ماء فيها على الاطلاق . واجتياز هذه الطريق خطر ايضًا في بعض الفصول من جرى الحمّى الضاربة اطنابها في بعض نقط هذه الطريق . اما مسافتها فلا تتجاوز ٤٥٠ كيلومترًا وندر من يسلكها من الاوربيين لكنها طريق الجمال التي تنقل البضائع الواردة من الثغور البحرية الى داخلية الحبشة

الثانية (طريق الاصابوت) وهي طريق اوعر من الاولى واقل حرارةً وطولها ٥٠٠ كيلومتر وهي تسير في جوار الصحراء على منحدرات اول الجبال الحبشية من تلك الجهة . وقد يسلكها البعض الّا ان الكثيرين يفضلون طريق التشرشر

الثالثة (طريق التشرشر) هذه الطريق هي الابعد والاوعر والاصعب مسلكًا فان طولها نحو ٥٥٠ كيلومترًا وكلها جبال وصعود وانحدار لكن الكل يفضلونها لوجود الماء فيها ولرطوبة الهواء ولورودها على القرى والمساكن الآهلة حيث يستطيع المسافر ان يبتاع ما يلزمه او ما ينقصه من المؤونة وقتًا بعد آخر

وهذه الطرق الثلاث تجتمع كلها في آخر حدود الامارة الحررية قرب نهر اواش ومنهُ الى عاصمة الشوا طريق واحدة اللهمَّ الَّا بعض العطفات الحديثة النشأة وهي التي يتبعها الجمالة . اما البغالة فتتبع في كل حال اقصر الطرق ولو كانت الاوعر لان البغال لا يهمُّها الوعر

وقد اتبعنا نحن في رحلتنا هذه طريق التشرشر لقضائها على ما سواها كما سبق الكلام وها نحن نورد لحضرات القرَّاء الكرام نسخة ما كنَّا نعلقهُ في كل مساء على دفتر رحلتنا هذه قبل رقودنا في المضرب فتستطلعهم على ملاحظاتنا العيانية لان في الاسفار فوائد جمة واخصها رؤيا الدنيا ودرس الاخلاق وتفقهة العقل وصحة الجسم وانشراح الصدر

*

٢ حكاية الرحلة يومًا بيوم

عن مضرب هرمايا الخميس في ١٠ أيار سنة ١٩٠٦

(المرحلة الاولى) قامت قافلتنا من هرر عند الظهر ثم امتطينا بغالنا نحو الساعة الثانية فخرج لوداعنا بعض الاصدقاء من الجالية السورية — والجالية كلها مؤلفة من اربعة اشخاص — على مسافة ساعة من المدينة وقد ساعدنا الحظ بالوقت نفسهِ بلقاء احد مواطنينا عائدًا الينا من دمشق فحيياه وودعناه فعاد بهِ مودعونا الثلاثة وعاد العدد الى اربعة كما كان . اما نحن فتابعنا السير الهوينا الى هرامايا حيث جعلنا المضارب على حافة البحيرة التي اتينا على ذكرها اكثر من مرة في مطاوي احاديثنا السالفة في المشرق الاقرب عن الحبشة

اما الطريق من هرر الى هذا المضرب فلا تزيد عن الثانية عشر كيلومترًا كلها سكة عربات جديدة كان قد اصلحها المأسوف عليهِ الراس مكونين وقد قطعناها الهوينا بين حديث ومسامرة لولا سحابة امطرتنا قليلًا فعكرت الصفاء ولكن ذلك امرٌ مألوف في ارض الحبشة في كل فصول السنة على الاطلاق وقد سبقنا فاعددنا الاغطية لمثل هذه الحوادث الاعتيادية

وكانت البحيرة زاخرةً لان الامطار في هذه الجهة لم تنقطع منذ نحو شهرين الى اليوم وكان يطوف على سطحها الوف من دجاج الماء فشوَّقنا منظرها الى لذَّة الصيد

لولا انها كانت المرحلة الاولى وخدام الطريق لم يعتادوا بعدُ نصبَ المضارب فاضطرتنا الحالة الى القيام بذلك وامتنعنا عن الصيد مؤجلينهُ الى الغد وان غدًا لناظره قريب

*

عن مضرب كسا الجمعة في ١١ ايار

(المرحلة الثانية) غادرنا مضرب هرمايا نحو الساعة التاسعة صباحًا لاننا اضطررنا ان ننتظر قدوم ترجمان الدكتور ڤيتاليان الذي تخلف عنا في هرر لاسباب ضرورية فسرنا على الاقدام على ساحل البحيرة واقتنصنا ما قدرنا من دجاج الماء وطول البحيرة نحو كيلومتر فقط من تلك الجهة . ثم امتطينا بغالنا وقصدنا طريق الشوا حتى وصلنا كسا نحو الساعة الواحدة بعد الظهر . اما الطريق فليست كطريق امس لاننا غادرنا سكة العربات على يمينا وهي المؤدية الى ديريداوا واخذنا طريق المكارية المؤدية الى الشوا فمررنا على كثير من مزارع الكالا فرأينا الزرع لم يزل صغيرًا لأننا لم نزل في بدء فصل الامطار

وكسا عبارة عن سهل كبير اخضر مريّ المرعى تحتاطه الاكمات من جهاته الاربعة وعلى رأس كل اكمة قرية يأهلها الكالا فضربنا خيامنا على الاكمة الغربيَّة وما جلسنا للغداء حتى اخذت الامطار بالهطول على ان خيامنا جيدة فحمتنا من المطر . ومما يذكر عن الحبشة بهذه المناسبة ان الامطار والزوابع تأتيها غالبًا بعد الظهر لذلك سيكون سفرنا في كل يوم باكرًا لئلا تباغتنا الامطار قبل ان نضرب خيامنا

*

عن مضرب كولوبي في ١٢ ايار

(المرحلة الثالثة) لم نتأخر كالامس في رفع المضارب لأن مرحلتنا اليوم اطول ولذلك شدَّ رجالنا رحالهم عند الساعة ٦½ وامتطينا بغالنا الساعة ٧ فقطعنا سهولًا واكامًا يشابه بعضها بعضًا وكلها مزارع ذرة وشعير عارية من الاشجار ما خلا بعضًا من اشجار الاوفوربيا الشمعدانية جعلها الكالا كسياج لصيانة قراهم . والطريق بين هذه المزارع كان صعبًا جدًّا بسبب الامطار التي سقطت امس ولكون الارض صلصالية التربة لزجة فكانت بغالنا تزلق على الوحل فتقضي علينا ان نمشي مرارًا على الاقدام ولكننا بعد اكمة اخيرة اخذنا بالصعود حتى دخلنا ارض بلاد تدعى ورابله فتغيَّر منظر

الطبيعة بغتةً اذ قد اصبح طريقنا وسط غابة عظيمة من اشجار العرعر والزيتون البرّي وبعض انواع العفص والتوبا (tuya) والصنوبر البرّي الذي يتجاوز طول اشجاره الثلاثين متراً تراها رافعة رؤوسها الى السحاب كأنها تفتخر بقامتها ولقد كان بالحقيقة منظر هذا الغاب يأخذ بمجامع القلوب الى ان وصلنا الى قرية « ورابله » التي اعطت اسمها لكل تلك الجهة وهي كناية عن مجموع قرى متقاربة متصاقبة كانها قرية ممدودة . فاستقبلنا هناك احد الارواميين هو وكيلٌ في هذه الناحية لحضرة السير گنيوني قنصل فرنسة في هرر الذي لهُ في ورابله محلٌّ لتسوُّق البن وبيع الحمام الامركاني المدعو « بابي جديد » وهو ملبوس الاهالي الوحيد تقريباً في هذه الجهات . اما هذا الرومي المذكور فهو رجل من اقدم الاوروبيين في الحبشة جاءها في عهد النجاشي يوحنس وتقدم عند المذكور حتى اضحى قائداً في جيشهِ وحكم بلاداً واسعة الّا ان الزمان قد أخنى عليهِ بعد موت النجاشي يوحنس واصبح يتعاطى التجارة او بالحري الاستخدام عند التجار للقيام بارود معيشتهِ وقد سلبهُ الامبراطور منليك الحاضر البلاد التي كانت تحت حكمهِ وسلمها لقائد غيره من الاحباش

وبعد انْ استرحنا ساعةً من الزمان في ورابله وشربنا قهوةً طيبة عند القائد المذكور — واسمهُ الفيتوراري تمولا — اخذنا بالصعود ايضاً بين الاشجار الفخيمة حتى وصلنا الى كولوبي عند الساعة الاولى بعد الظهر فضربنا السرادق تجاه المعسكر الذي توفي فيهِ منذ خمسة واربعين يوماً المأسوف عليهِ الراس مكونين والحق يقال ان مشهد الطبيعة في هذه النقطة باكمالها واوديتها المغطاة بالاشجار الفخيمة من اجمل بدائع الطبيعة قلما يُرى نظيرها في بلاد المعمور . امّا علوها عن سطح البحر فهو على موجب مقياس العلو (altimètre) الذي معنا ٢٨٠٠ متر ولذلك كانت ليلتنا باردة اذا اسعدنا الحظ بان لم تمطرنا السماء اليوم وهو من نوادر ايام هذا الفصل في ذلك الصقع . ولذلك اغتنمنا الفرصة وصعدنا بعد الظهر الى اعلى نقطة من ذلك الجبل طلباً لترويح النفس وكانت هذه النقطة سالفاً قلعة طبيعيّة اتخذتها جيوش صاحب هرر لتصوّب نار مدافعها منها على عساكر النجاشي منليك يوم اشتعلت نار القتال بينهما منذ نحو عشرين سنة قبل استيلاء الاحباش على هرر . والموقع لم تزل آثارهُ الى اليوم محاطة بنطاقين من الخنادق . فانقشعت لنا من هناك قفار الدناكل عن بُعد على حدّ البصر تتلألأ عليها اشعّة

الشمس فتراها اشبه بالامواج وكأنها في اتساعها البحر العرمرم . ثم قفلنا عائدين الى مضاربنا لأن الريح الباردة في تلك الاكمة لم تسمح لنا بطول الاقامة

*

من معسكر تشالانكو الاحد ١٣ ايار

(الرحلة الرابعة) كانت طريقنا اليوم من كولوبي حتى على مقربة من تشالانكو وسط غابة فخيمة اكثر اشجارها من الفصيلة الصنوبرية . مررنا في هذه الغابة على اشجار لا يقل ارتفاعها عن ٣٠ متراً ولا تنقص دائرتها عن ستة امتار لكن الغالب عليها انها تبلغ طول عشرين متراً ودائرة ثلاثة امتار وهي متلاصقة بنوع ان الارض لا ترى الشمس وتربتها مغطاة بكثير من النبات الذي لا يُرى الّا في الحلات الرطبة الكثيرة المياه كانواع الفطر والاشنة (Lichen) والطحلب ونحو ذلك

ولقد اثر بنا جمال منظر هذه الغابات اي تأثير حتى وددنا استيطان هذه البلاد لو كانت اوغل في التمدُّن اذ قلما يوجد ما يشبه فخامة هذه المشاهد ان في اوروبا او في اسيا ولكن الله وحده عليم بماذا يكون مستقبل هذه البلاد على انها متى تمدنت سيتمتَّع بها من يأتيها بعدنا اما نحن الآن فنكتفي منها بمرورنا في وسطها مرور الرحالة المتفرج المتنكِّر

ولما خرجنا من الغاب بعد سير نحو ٣ ساعات نظرنا كثيراً من جماعات القرود خارجة من احدى اطراف الحرج وذاهبة لترد من نهر يسيل هنالك بالوادي فتقدَّرنا القطيع بنحو الثلاثمائة . ولما رأتنا هذه الحيوانات ذعرت واختفت بين ادغال الحرج لان حامينا اطلقت عليها رصاصاً قصد اللهو . وقد مررنا قبل وصولنا الى محل المضرب على بلد يدعى سورّه (Sourré) للرسالة الكاثوليكية فيه مقام صغير يسكنهُ راهب واحد يخدم قطيعه الانجيلي الصغير المؤلف كله من الكافرا . وهكذا تابعنا مسيرنا بين حقول من الذرة والشعير وغير ذلك من الحبوب حتى ضربنا خيامنا في تشالانكو بعد الظهر

تشالانكو محل سهل خصب متسع كله حقول بسيطة وليس به شيء يستحق الذكر سوى ان هذا السهل شهير في تاريخ الحبشة فهو ميدان الموقعة العظيمة التي حصلت بين صاحب هرر والامبراطور منليك . تلك الموقعة التي كانت القاضية بظفر

الاخير ودخول هذه البلاد في حوزة الاحباش سنة ١٨٧٧ ولم يمكنا بعد الظهر ان ندور لنزور تلك الناحية لان الامطار كانت غزيرة اضطرتنا ان نلازم المضرب. فصرفت وقتي بقراءة كتاب اوصلهُ اليَّ البريد ليلة مبارحتنا هرر وهذا الكتاب هو ترجمة ابي سمرا غانم فقابلت بلادنا في عصر ذلك الهمام مع الحبشة التي انا فيها اليوم من حيث الحوادث والمواقع والعوائد الاداريَّة والنظام العسكري وغير ذلك . . .

*

عن مضرب درُّو الاثنين ١٤ ايار

(المرحلة الخامسة) استيقظنا صباح اليوم في تشالانكو واذا بالضبع قد اقترست فخذي احدى بهائمنا فالتزمنا ان نغادر هذه الدابة في مكانها بالبريَّة لانها اصبحت غير قادرة على المشي فستأتي ولا شك في هذه الليلة شرذمة الضباع وبنات آوى ويكون لهنَّ من لحم هذه البهيمة وليمة كبيرة

مرحلتنا اليوم ليس فقط اطول من المراحل السابقة لكنها صعبة السلوك ايضاً جدًّا لكثرة الوهاد والاودية والمعاقل التي تتخللها فكنَّا لا ننتهي الى قمة راقية الَّا ونشرع بالانحدار الى الاعماق قربها على ان مجموع الصعود كان اكثر من الهبوط. اذ ان نقطة معسكرنا اليوم هي على علو ٢٧٠٠ متر وكانت بالامس ٢٥٠٠. اما طريقنا فكانت كلها خالية من الاشجار ما خلا بعض المحلات التي قطعناها في داخل الغابات. على ان الجبال والاودية من على ناحيتي الجادَّة كانت تشاهد من بعيد حافلة بغارس الزيتون البرّي . وقد نظرنا على طريقنا شجرة الكوسا المشهورة زهورها بين المواد الطبيَّة لعلاج الدودة الوحيدة

درّو حيث ضربنا سرادقنا محل مرتفع كما اشرنا ولكن الجبال الشاهقة المغطاة بالاحراج تكتنفهُ من كل صوب. اما المراعي فيه فخصبة جدًّا لذلك طلب الينا المكارية ان نبقي الغد كله راحة لنا وللبغال لكن الدكتور ڤيناليان لم يشأ ان يجيب الى مطلبهم واعدًا اياهم يوم راحة في المرحلة التالية ولا يوجد في هذا المحل سوى محطة التلغون فقط يسكنها بعض المستخدمين الاحباش مع نسائهم واولادهم اما قرى الكالَّا فهي بعيدة منَّا. وفي كل مدة مكثنا اليوم في هذا المعسكر كان الضباب مغطيًا تلك

الناحية مع ان السماء لم تمطرنا اليوم غير رشات قليلة ولكننا بسبب الضباب لم يمكنا الخروج من مضاربنا وقد اوقد رجالنا مواقد كثيرة من النار نهاراً لتبديد الغطيطاء وليلاً للاضطلاء ولابعاد الوحوش الضارية وخصوصاً النمر الذي يقال انهُ كثير في هذه الناحية

*

عن معسكر بوركا الثلاثاء ١٥ ايار

(المرحلة السادسة) اصبحنا اليوم في دَرّو والارض مغطاة بالملاح (النفتاف) والبرد قارس والضباب كثيف يغطي المعسكر فاوقد رجالنا ناراً فاصطلينا وشربنا القهوة كالعادة ثم صرخ قائدنا : هيا على الطريق

بدأتْ طريق مرحلتنا هذه بانحدار عظيم نزلناهُ مشياً على الارجل لانهُ صعب جداً على الدواب واظنهُ يتجاوز الثلاثمائة متر دفعة واحدة ثم دخلنا وادياً طويلاً وسط غابة عذراء تشبه التي وصفناها سابقاً ممتلئة بكل انواع الوحوش والطرائد والطيور الّا انها صعبة المسلك جداً تغوص في وحلها ارجل الدواب الى ركبها لان الاشجار من على طرفي الطريق تتلاحم فوقهُ وتحجب اشعة الشمس ومن ثم لا تنشف قط هذه الحلات من اوحالها وتبلغ بها الرطوبة الى حدّ انك ترى ساق الاشجار وجذوعها وغصونها لا بل اعمدة الاسلاك التلفونية ايضاً لابسة قشرةً من العفن وبقية النباتات الفطرية العطنيَّة هذا ما خلا الحجارة والصخور والحصى التي لا يُرى لها من لون لما غطاها من هذه النباتات الرطبة . وهذا الوادي لا سكان فيهِ من الآدميين الّا في قليل من الحلات منهُ حيث ترى الوادي قد اتسع عرضهُ جداً فهناك مزارع قمح او شعير او ذرة ومراعي خصبة حولها بعض اكواخ للكاكالا

ثم بعد هذا الوادي يبدأ سهل متسع فسيح من اجمل سهول هذه القاطعة واعظمها واخصبها وهي ناحية كان قد اقطعها المرحوم الراس مكونين لصهره زوج اخته الجنرال هايلا سلاسيه يقال لهذا السهل ولتلك الناحية بوركا يجري فيهِ نهر غزير يروي المزدرعات والاهلين الفلاحين . وقد جعلنا مقامنا في آخر هذا السهل المذكور على رابية صغيرة مصاقبة للنهر المومأ اليهِ . فبعد تناول الطعام تنزهنا على حافة هذا النهر الذي تتكسر مياههُ من محل الى آخر على شبه شلّالات صغيرة فاذا بنباتهِ يشبه كثيراً الحشائش التي تنبت على حافة المياه في غور الشام كقرَّة العين والنعناع ونحوهما وهي

المرة الاولى — وقيل لي انهُ المحل الوحيد في هذا القطر — التي رأيت بها في هذه البلاد صنصافًا لانهُ شجر مختص كما هو معلوم بالبلاد الباردة او المعتدلة حيث تجرى المياه وهو هنا ينبت وحشيًا على شاطئ النهر المذكور. فاكلنا « سلطة » على العشاء من قرّة عين هذا النهر ونعناعه فكانت غاية في اللذة. اما الجهات التي تكتنف معسكرنا فهي جبال شاهقة مهيبة كلها مغطاة بالاحراج وقد اقتنصنا وعلين صغيرين على مقربة من سرادقنا فكان لحمهما من اطيب اللحوم

*

عن معسكر بوركا الاربعاء ١٦ ايار

(المرحلة السابعة) بينا كنّا نستعد في هذا الصباح للسفر واذا بقائد حملتنا قد جاءنا بوجه متبسم يخبرنا الّا نعجل باقفال صناديق أثقالنا فسألناهُ مستفهمين فاجابنا ان الحامية والمكارين طلبت من الدكتور ڤيتاليان القيام بوعده بيوم الراحة في هذا المحل لان المرعى خصب للدواب والماء جيّد فأُجيب طلبهم . واذ نزل البعض من رجالنا الى شاطئ النهر يغسلون ثيابهم وذهب البعض الآخر يجول في الناحية قمنا نحن صحبة الدكتور المذكور وحرمهِ وحملنا بنادقنا ورافقنا بعضٌ من رجال حاميتنا بسلاحهم خوفًا من وثوب الوحوش الضارية علينا وذهبنا لترويح النفس . فنزلنا اولًا عند ضفة النهر واتبعنا مجراه حتى دخل ودخلنا معهُ في غابة عذراء ذات اشجار عالية فخيمة وادغال كثيرة تشتبك من شجرة الى اخرى حتى ان ارض الغاب لا تكاد ترى نور الشمس . فجمعنا فطرًا كثيرًا اصلحهُ لنا الطاهي على الغذاء مع لحم الصيد فكان بغاية اللذة للحنجرة ورأينا مئات من القرود المعروفة بالكوريزا (colobus goureza) ذات الجلود السوداء المبقعة بالابيض تقفز من شجرة الى شجرة وتقلب على الاغصان. وطرائد كثيرة كالغزال والوعل والارنب والدكدك فاقتنصنا منها ما شئنا وكانت الغابة المذكورة ممتلئة من ينابيع مياه صغيرة صافية رائقة باردة تسيل على الحصى وبين اصول الاشجار فيُسمع لخريرها نغمة تحنُّ اليها القلوب ثم تنحدر الى الوادي حيث تصب في النهر الذي ذكرناه. وبعد ذلك عدنا قرب وقت الغذاء الى المعسكر فتناولنا الطعام وقضينا بقيّة النهار في المضارب لان السماء امطرتنا كالعادة (لهُ بقيّة)